

كمال إبراهيم مرسى

قسم علم النفس التربوي، كلية التربية، جامعة الكويت

❖ المعهد العلمي للفكر الإسلامي، سلسلة المنهجية الإسلامية (2)، بحوث ومناقشات المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي، 1412هـ/1992م، ج(3): المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية التربوية، ص209-248، [40] صفحة من القطع المتوسط].

❖ لغة البحث (الكتاب): اللغة العربية.

❖ مجال البحث (الكتاب): الصحة النفسية - التأصيل الإسلامي لعلم النفس.



يبدأ الباحث بعرض مقارنة بين تعريف كل من الصحة الجسمية والصحة النفسية :

حيث يذكر أن هناك اتفاقاً كبيراً على تعريف الصحة الجسمية بين الأطباء ، وأن هناك -في المقابل- اختلافاً كبيراً بين علماء النفس على تعريف الصحة النفسية. ويعلل الباحث هذا الفرق بأن تعريف الصحة الجسمية لا يتأثر كثيراً بقواعد السلوك، بينما يتأثر تعريف أو مفهوم الصحة النفسية كثيراً بثقافة المجتمع وقواعد سلوكه من جهة، وتأثر علم النفس بعمومه أولاً وفي مجال الصحة النفسية بالذات ثانياً بأخلاق المجتمع ومعتقداته وثقافته من جهة ثانية، ليصبغ الباحث على التعريف أو المصطلح النفسي الصبغة الوطنية أو العملية أكثر من أصطبغاه بالعالمية أو الإنسانية.

ثم يعرج الباحث إلى تعريفات علماء النفس للصحة النفسية ليجدها قد تأثرت كثيراً بنظرة علم النفس الحديث إلى الإنسان: نظرة مادية لا علاقة لها بالروح. ثم يدخل في مقارنة ثانية بين تعريف كل من الإسلام وعلم النفس للصحة النفسية :

- «فحسن الخلق» في الإسلام يمكن أن يتكامل فيه مفهوم الصحة النفسية.
- بينما ينزع تعريف علم النفس المعاصر للصحة النفسية ليصفها بأنها: الخلو من الانحراف أو تحقيق التوازن أو التوافق أو تحصيل السعادة أو تحقيق الذات.

وبعدها يناقش الباحث كلاً من هذه المواصفات النفسية للصحيح نفسياً، إذ ما دونها هو المرض النفسي :

✽ فالخلو من الانحراف والتوازن والإضطرابات والأخطاء والنقائص خاصية أو خواص مثالية بعيدة عن الواقع، إذ لا يوجد، والمناقشة للباحث بالطبع، إنسان كامل أو خال من التوترات والنقائص. فالإنسان يخطئ ويصيب وينحرف ويعتدل وخير الخطأين التواؤن. كما أن الخلو من الانحراف لا يمتّع صاحبه بالصحة النفسية شرطاً، فقد ينفي عنها علاقات وَهِنها -أي الصحة النفسية- ولكنه لا يثبت علامات قوتها.

✽ أما تحقيق التوازن، كحالة نفسية يشعر بها الإنسان بالأمن والطمأنينة عندما يتحقق عنده التوازن بين قوى النفس الداخلية أو بين مصالحه الفردية ومصالح الجماعة، فإن الباحث يرد التعريف إلى تصنيف إفلاطون للأنفس البشرية وطريقة توازنها فينقدها من الناحيتين العلمية والتطبيقية، ثم يعرج إلى فرويد وأقسام النفس الثلاثة عنده (الهو، الأنا، الأنا الأعلى) ليخطئها ويخطئ مفهوم الإنسان الشرير عنده.

وفي المقابل يطرح الباحث ما قاله الإمام الغزالي وابن قيم الجوزية من مبدأ الوسطية في السلوك بكل شئ وتحقيق التوازن بين مطالب الجسم والنفس والروح في حدود شرع الله، وكيف سمّيا ذلك المتوازن نفسياً بصاحب «القلب السليم».

كما يشير الباحث إلى امتداد المنهج الإسلامي لأكثر من التوازن النفسي للفرد ليشمل التوازن بين مطالب الفرد ومطالب الجماعة التي يعيش فيها ليجمع بين المصالح الفردية والجماعة، وتسخير مصلحة الفرد في مصلحة الجماعة وتسرب مصلحة الجماعة في مصلحة الفرد.

✽ ثم يذهب الباحث ليناقد التعريف الثالث للصحة النفسية في علم النفس المعاصر وهو تحقيق التوافق وما يعنيه من توافق الفرد أو الإنسان مع نفسه أولاً ومع مجتمعه ثانياً.

ويرى الباحث أنه بالرغم من اتفاق علماء النفس على أهمية التوافق في الصحة النفسية إلا أنهم اختلفوا بشأن دينامياته ودور الفرد فيه (وهنا يستعرض الباحث رأي مدارس علم النفس المختلفة بهذا الشأن). ثم يأتي الباحث إلى الإسلام ليضرب أمثلة كثيرة (قرآنية ونبوية) على دينامية المسلم ودوره في التوافق الحسن مع الجماعة وتعاونه وتسامحه وحسن جواره وإصلاحه بين الناس من ناحية، ووجوب ابتعاده عن الحسد والتباغض وسوء الظن والحقد من ناحية ثانية. إلا أن الإسلام لم يجعل توافق الفرد المسلم توافقاً قائماً على الخضوع الآلي ولا نسخة متكررة من البردعة الاجتماعية، بل هو توافق مسؤول قائم على بصيرة وإرادة الفرد ليصلح نفسه بصلاح الجماعة في ضوء شرع الله: فإن فسدت الجماعة وجب نصحه لها ثم خروجه عنها عند إصرارها. أما توافق المسلم مع نفسه فالمسلم مأمور بمخالفة هواه وقمع شهواته المفضية لها.

وهنا يختلف التعريف أو المفهوم الإسلامي للصحة النفسية عن تعريفات علم النفس المعاصر: فالمسلم لا يمكن أن يخضع لمعايير محرمة ولا يلتزم بسلوكيات فاسدة ولا بتقاليد شاذة عن شرع الله: وهذه كلها تخرجه عن دائرة الصحة النفسية على وفق تعريفات علم النفس المعاصر. في الوقت الذي تعتبر فيه مثل هذه الأمور غاية الصحة النفسية للفرد نسبة إلى المعايير الإسلامية، بل ومن علامات نضوجه وصحته النفسية.

من ناحية أخرى فإن توافق الإنسان مع نفسه بحسب هواها وشهواتها يدلّ على تأخر نضجه الاجتماعي والإنفعالي وضعف صحته النفسية من وجهة نظر إسلامية.

✽ أما تحصيل السعادة، فيرى بعض علماء النفس أن الصحة النفسية شعور بالسعادة، أي شعور الفرد بأنه سعيد في حياته على عكس الشقي بحياته الذي لا يتمتع بصحة نفسية جيدة.

ويناقش الباحث هذا التعريف ليدلل بأن السعادة مفهوم «نسبي» يختلف من شخص لآخر: فما يسعد فرداً قد لا يسعد فرداً آخر أو آخرين. ويقسم الباحث السعادة إلى سعادة في الملذات الحسية وهي عبارة عن أحاسيس ممتعة ندرتها

بالحواس وترتبط بإشباع حاجات الجسم، وسعادة في الملذات النفسية لإشباع الحاجات النفسية فيه. ويتوغل الباحث في التراث وإلى الإمام الغزالي بالذات ليجد أن لذة العلم والمعرفة - عند الغزالي - تفوق كل الملذات الجسمية والحسية، وأن لذة معرفة الله تفوق لذة معرفة من سواه، ليجعلهم -أي المتلذذين بالعلم ومعرفة الله- أسعد الناس وأحسنهم حالاً في الدنيا والآخرة. حيث يرى الغزالي أن حب الله هو باب السعادة الذي كلما زاد في الإنسان زادت سعادته وقلّ غمّه وهمّه وهذه هي السعادة الحقيقية، التي هي سعادة الآخرة كما يراها ابن قيم الجوزية.

ويصدق الباحث هذا الاتجاه من خلال عالم نفس حديث بل وأحد مؤسسيه وهو Mc Dogall الذي يرى بان ما يحصل عليه الفرد من اللذات الحسية سعادة زائلة لا تصلح لأن تكون غاية في ذاتها، وأن السعادة الحقيقية تكمن في تحقيق أهداف سامية وفي الدفاع عن مبادئ نبيلة.

✽ أما تحقيق الذات وهو ما طرحه Maslow في قمة هرمه للحاجات أو الدوافع الإنسانية فإنه يتفق مع ما طرحه Mc Dogall من أن تحقيق الذات يمكن أن تكون دافعاً للإنسان للارتقاء بمستوى فهمه لنفسه وفكرته عنها.

ثم يعرج الباحث إلى التعاريف الحديثة في علم النفس ليصل إلى أن تعريف الصحة النفسية لتحقيق الذات مرهون بتحقيق التوازن:

- بين الجسم والنفس .
- وبين الفرد والمجتمع .
- وتوافق الفرد مع نفسه والمجتمع .

ثم ينتقد الباحث مفهوم علم النفس المعاصر لتحقيق الذات وجعله مدخلاً للصحة النفسية من ناحية، وتركيزه على قلة قليلة من الناس من ناحية أخرى (لتصبح الأكثرية منهم غير صحيحة نفسياً على وفق هذا التصنيف). كذلك لعدم وجود ارتباط فعلي بين الإنجاز الرائع للفرد وصحته النفسية، وأن المجرم يمكن أن يشعر بإنجاز أعمال (رغم إنها إجرامية) رائعة. وأن الإنسان قد يصل إلى تحقيق ذاته رغم حرمانه من الطعام والماء والنساء (الحاجات البيولوجية

والفيزيولوجية)، كما أن الفلسفة التي تقف وراء هذا الطرح تسعى إلى تنمية الأنانية والجشع والاستغلال والتسلط من ناحية، وإلى وهن الروابط الأسرية وضياع الرحمة والتعاطف من ناحية ثانية.

ويرى الباحث أن مثل هذه الفلسفة والمفاهيم لا تصلح للتطبيق في المجتمعات الإسلامية: فقيمة العمل والإنجاز في الإسلام مرتبطة بحكم الله فيه وعلى ابتغائه وجه الله به لا ابتغاء مصلحته الشخصية.



وبعد هذه المناقشات المستفيضة للباحث لمفاهيم وتعريفات الصحة النفسية في علم النفس المعاصر والرؤى الإسلامية المختلفة لها، يخلص منها إلى مفهومي «حسن الخلق» و«سوء الخلق» ليعوض بهما تعريفي «الصحة النفسية» و«الوهن النفسي».

فأفضل المؤمنين وأكمل المسلمين إسلامياً، كما يذكر الباحث، هم أحاسنهم أخلاقاً. فلكل بنيان أساس (كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما) وأن أساس الإسلام حسن الخلق. ويصف الإمام الغزالي حسن الخلق بالإيمان وسوءه بالنفاق. ومن زاد حسن خلقه زاد إيمانه كما يقول ابن القيم.

ثم يستعرض الباحث في آخر ورقته مجالات حسن الخلق: مع الله، مع الناس، مع نفسه، مع صحبه حتى ينمو ويتكامل بأبعاده الأربعة:

«الجسمية، النفسية، الاجتماعية، والروحية»

ثم يدخل في تفاصيل كل منها وكيف يمكن أن تؤدي به إلى الصحة النفسية ولتجعله:

«معافى في بدنه، في سلام مع نفسه، وانسجام مع الناس، وقرب من الله».

